فكاهات

رواية

جزآء المعروف (١)

كان في كلّية اكسفرُد فتىً يدعى ادورد يتلقى العلوم العالية وينفق على نفسهِ من اموالٍ طائلة تركها لهُ والداهُ بعد موتهما . ولم يكن ادورد ممن يطلبون اللهو والمعاشرة فانقطع الى الدرس وجد في تحصيل العلوم فبلغ فيها شأوًا بعيداً . ولما كان ريع املاكهِ يكفيهِ للمعيشة العالية لم يهتمّ باحتراف حرفةٍ بل تفرّغ للكتابة والتأليف فألّف روايةً جآءت فريدةً في بابها واقبل عليها جمهور الشعب الانكليزي واشتهر المؤلف بشهرتها وجعل اصحاب المطابع يعرضون عليهِ الاموال الطائلة لمشتراها . وكان ذلك فاتحة ميدان قلمهِ فاردف روايتهُ الاولى بغيرها ثم بأخرى حتى عمّت شهرتهُ المملكة البريطانية واكثر البلدان الاوربية فافادهُ ذلك ربحاً وافراً وشهرةً عظيمة

وكان ادورد كاكثر الكتاب لا يميل الى سكنى المدن الحافلة بالاهل فقصد بلدة صغيرة بالقرب من منبع نهر التيمس معروفة بجودة هوآئها وصحة مآئها وحسن موقعها واهتدى الى بنايةٍ فيها مؤلفة من طبقتين اكترى السفلى منهما وجعل يجول في غابات البلدة ومتنزّهاتها وبين جداولها وازهارها

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

فيشحن دماغهُ خواطر وتصورات شتى مما تملي عليهِ الطبيعة ثم يعود الى غرفتهِ وهي تطلّ على النهر فيجلس الى مائدته ويتناول من تلك التصورات فيرسم على اوراقهِ آيات بينات

وعلم ادورد بعد حين انهُ يقطن في الطبقة العليا من مسكنهِ رجلٌ يدعى المستر بلفور وهو صاحب البناية ولهُ ابنةٌ وحيدة يُتَحدَّث بجمالها الرائع وحسن اخلاقها وآدابها تدعى أليس . واتفق يوماً انهُ بينما كان عائداً من نزهتهِ ألتقى بأليس ولم يكن قبل ذلك يراها الا عن بعد وهي داخلة او خارجة من المنزل فرأى فيها من جمال الصورة وحسن التقطيع ما ادهشهُ فوقف مبهوتاً يتأمل في محاسنها فحيتهُ بلطف فاجاب تحيتها ثم اخذ يحادثها وفي اثنآء الحديث سألها عن والدها فتنهدت من كبدٍ حرّى وقالت اواه لا تسألني عن والدي لكن اودّ اذا كان في امكانك ان تزورهُ وتطلع بنفسك على ما هو فيهِ لعلك تستطيع ان تغير شيئاً من حالهِ فاني لا اراهُ الا خالياً بنفسهِ كثير الافكار قليل الكلام لا يعلم احد ما يطوي ورآء اضلاعهِ من الهموم . فقال ادورد وما سبب ذلك يا ترى . قالت أليس لا ادري سوى انني منذ عرفت العالم ارى والدي في غرفتهِ لا يخرج منها الاّ الى سطح المنزل ثم يعود اليها وهو لا يزور احداً ولا يكلم احداً وتدل هيئتهُ على كربٍ عظيم وخطبٍ جسيم حلّ بهِ لكنهُ لم يطلعني على شيءٍ من ذلك ولا يخبرني بشيءٍ من امرهِ مهما اكثرت من الالحاح . ثم سقطت من عينيها دمعتان احرقتا قلب ادورد قبل ان تصلا الى وجنتيها فحيتهُ باحترام وسارت في طريقها

وفي ذلك المسآء صعد ادورد لزيارة المستر بلفور وهي اول مرةٍ زارهُ فيها فرآهُ رجلاً مهيباً تدل هيئتهُ على رحب الصدر وعلوّ الهمة ولكنهُ كما وصفتهُ ابنتهُ سكوتٌ حزينٌ تظهر عليهِ علامات الانقباض وشرود الفكر كمن سقط في لجة اليأس وايقن عدم النجاة منهـا . فجعل ادورد زيارتهُ هذه الاولى مختصرة ولم يزد الحديث فيها على المجاملة وتأسيس المودة المبنية على ما بينهما من الجوار الى ما شا كل ذلك من احاديث التقرب والمطايبة ثم استأذن وانصرف وكان المستر بلفور يجيبهُ بكل رقة ولطف ولكن بغاية الاختصار . ورأى ادورد من نفسه عاملا يدفعـهُ الى التردد على المستر بلفور ففعل ووجد هذا في محادثة ادورد ارتياحاً وانبساطاً فمال اليهِ وجعل يظهر لهُ الوداد شيئاً فشيئاً حتى اصبح ادورد كانهُ ابنهُ وصار يزورهُ كل يوم ويكلمهُ بكل دالّه وبدون كلفة . ولما تمكن الانس بينهما اخذ يسألهُ عن سبب كدرهِ وانقطاعهِ عن الناس فتنهد بلفور وانبعث من صدرهِ نفسٌ كالنار ثم نظر الى ادورد وقال اذا شئت ان تعرف سبب كدري وتاريخ حياتي فاسمع واعتبر واتخذ لك من حالتي نصيحاً ونذيراً

انني كنت تاجراً في مدينة لندن وكان لي ولع شديد بالتجارة فابتدأت ولي من رأس المال مئتا ليرة ورثتهـا عن والدي فلم تنته السنة الاولى حتى ضاعفت رأس المال فسررت جدّا من الربح ودفعني ذلك الى زيادة الاجتهاد فضاعفتهُ ايضاً في السنة الثانية ثم ضاعفت المجموع في السنة الثالثة ولم ازل ازيد في رأس مالي وتجارتي واجتهادي حتى اصبحت يوماً فوجدت ان ثروتي صارت تقدَّر بمئتي الف ليرة . وكانت نفسي قد تعبت لفرط ما

اجهدتها الاّ انهُ لم يعد في امكاني التخلي عن الاعمال مع اتساع تجارتي وامتداد معاملاتي الى كل ناحيـة . وكان يتردد على محلي فتىً فقير الحال فاجود عليهِ المرة بعد المرة بما يفرج كربتهُ ورأيت انهُ يطمع مني في اكثر من الاحسان وآنست فيهِ ذكآء وتوقد خاطر واستعداداً لتعاطي الاشغال فعرضت عليهِ الاستخدام في محلي فقبل شاكراً فعينتهُ للحال ولم تمضِ على هذا الفتى ايامٌ كثيرة حتى ظهرت مهارتهُ واستعدادهُ للتجارة فجعلت ارشدهُ وادرّبهُ وبسطت يدهُ في محلي وفي وقتٍ قصير جعلتهُ القيّم العام على كافة اعمالي فاصبح في يدهِ العقد والحل يتصرف في تجارتي وسائر اشغالي كما يشآء بلا رقيبٍ ولا مناقش

ولكن الغدر طبيعةٌ في اكثر الناس والانسان مركبٌ على الطمع والبغي فان هذا الحمل الذي ربيتهُ بيدي لم يكن سوى ذئبٍ خاطف واصٍّ خائن لانهُ لما رأى ان كل شيءٍ قد اصبح في يده وموكولاً الى عهدتهِ وتحقق ثروتي الطائلة لعب برأسهِ شيطان الطمع فنقل جميع اموالي واملاكي الى اسمهِ وحرمني ثروتي بأسرها ثم طردني من محلي كبعض الخدم. فخرجت لا املك شروى نقير وليس في يدي سلاحٌ على هذا الخائن لخروجي من عهدة جميع اشغالهِ اليهِ فاخذت الوم نفسي على ما فعلت وندمت ولكن بعد فوات الامر حين لم يعد ينفع الندم ولا يمكن تدارك الحال. ولما رأيت نفسي قد صرت الى ما صرت اليهِ وذهب كل ما كنت فيهِ من الغنى والوجاهة تعذّر عليَّ البقآء في لندن فهجرتها وجئت الى هذه البلدة وهذه البناية ملكٌ لزوجتي فسكنّا هنا ولها في هذه الناحية اراضٍ ذات ريع زهيد نعيش منهُ .

وبناءً على ما اثرت فيَّ هذه الفعلة الشنعاء كرهت الجنس البشري عموماً وآليت على نفسي ان لا اتداخل مع مخلوقٍ آخر سوى اهل بيتي . ومما زاد احزاني ان زوجتي توفيت بعد وصولي الى هنا ببضعة اشهر تاركةً لي طفلةً صغيرة هي أليس ابنتي التي رأيتها الآن . فدفنت فقيدتي تحت ظل تلك الاشجار في الحديقة وكان ذلك منذ عشرين سنة فلم اخرج من ذلك الحين الى خارج بيتي ولا اقدر ان اجيل في فكري شيئاً سوى خرابي وتنغيص حياتي والويلات التي جرّها على رأسي ذلك العاتي العقوق فالويل لي في الدنيا ولهُ في يوم الموقف الرهيب

وزاد تأثر المستر بلفور فاحمرّت حدقتاهُ وقطب حاجبيهِ واجتمع الزبد على اشداقهِ واصبح كمن مسّهُ جنون فجعل ادورد يسليهِ ويهوّن عليهِ الامر وقد اخذتهُ عليهِ الشفقة والرحمة وجعل من واجباتهِ اليومية ان يزور المستر بلفور فيجتهد في تسليتهِ عما مضى خوفاً عليه من ان يودي بهِ الهمّ والحزن وشفقةً على ابنتهِ التي لا ترى سوى والدها ولا تسمع سوى ترديد احزانهِ واشجانهِ

وكان اذا دخل ادورد الى زيارة المستر بلفور يطلب اليهِ ان تخرج أليس فتتنزه في الخلآء رفقاً بصحتها فكانت تخرج في اكثر الايام عند المسآء . وحدث يوماً انهُ بينما كان ادورد عائداً من نزهتهِ صادف اليس في احد الشوارع عائدة الى البيت و برفقتها شابٌّ لا يقلّ جمالهُ عن جمالها وهما سائران معاً كملكين او كبدرٍ قُسم نصفين فاستغرب ادورد مرافقة اليس لهذا الفتى ولما اقترب منهما رفع قبّعتهُ مسلماً فاستوقفتهُ اليس ثم عرفتهُ برفيقها واسمهُ

المستر وليم برَون وقالت لادورد ان الاتفاق ساقني الى التعرّف بالمستر برون ورأيت فيهِ مشابهة لاحوالي فتصادقنا . ثم التفتت الى رفيقها وقالت لهُ هذا هو المستر ادورد الذي ذكرتهُ لك والآن بما ان والدي قد اصبح وحدهُ فاني استأذنكما في الاسراع اليهِ وادعكما تتمّان نزهتكما وتحكمان بينكما عُرَى الصداقة . قالت ذلك ثم ودّعتهما وتوجهت الى البيت . وسار ادورد ووليم يتحادثان فعلم ادورد ان وليم بعد ان اتمّ دروسهُ في المدارس العالية عاد الى والدهِ في تلك البلدة فوجد ان والدتهُ قد توفيت ورأى والدهُ قلق البال مضطرب الاحوال مشتت الفكر لا يخرج من بيتهِ ولا يهتمّ بشيءٍ سوى الصلاة والابتهال وهو يقضي اكثر اوقاتهِ في الكنيسة جاثياً امام مذبحها مقدماً تضرعاتهِ بغاية الخشوع والاسف . وان وليم لما رأى والدهُ على هذه الحال لم يمكنهُ تركهُ فاضطرّ ان يبقى معهُ ولكنهُ سئم حياة الوحدة وضجرت نفسهُ من الخلوة لو لم يتعرف اخيراً بأليس فصار يرى بها بعض السلوّ والاستئناس . ثم قال وليم لادورد وقد بلغني من أليس حسن معاملتك لوالدها فهل لك ان تتنازل لزيارتنا لعلك تتمكن من حل عقدة لسان والدي كما فعلت بابيها . فتبسم ادورد وتعجب من وجود شخصين غربي الاطوار في بلدةٍ واحدة معهُ وتحت عنايتهِ فتوجه مع وليم الى بيتهِ وتعرف بوالدهِ المستر برَون فرآهُ في اطوارهِ كالمستر بلفور ولا يختلف عنهُ الاّ في ان هيئتهُ تدل على المسكنة والانكسار وانهُ يكثر من الصلاة والتضرع خلاف ذاك

وجعل ادورد يقضي اكثر اوقات فراغهِ في تطبيب بلفور وبرَون وقد رأى في ذلك لذةً فتمكن اخيراً من اخراج بلفور من بيتهِ فصار يزور ادورد

في بعض الليالي ويسهر عندهُ الى الساعة الحادية عشرة فتأتي أليس وتأخذ والدها من عندهِ بعد ان تلقي عليهِ نظرة تعرب عن شكرها ومعرفتها جميلهُ . ومال ادورد الى جمع بلفور وبرَون يوماً معاً ليرى ما يكون من امرهما فسعى جهدهُ في اقناع برَون ان يزورهُ حتى وعدهُ ان يأتيهُ في تلك الليلة فيقضياها بلعب الشطرنج . ولما كانت الساعة الثامنة جآءهُ على حسب وعدهِ فاستقبلهُ ادورد بالترحاب واجلسهُ ولم يكد يستقرّ بهِ الجلوس حتى قُرع الباب فعرف ادورد ان القارع المستر بلفور فقام وفتح الباب فدخل المستر بلفور الى وسط الردهة ولكنهُ رأى رجلاً غريباً في الغرفة فوقف مفكراً . وكان ادورد قد اغلق الباب وعاد فقال لهُ ان عندي الليلة زائراً وارجو ان يكون لنا نحن الثلاثة من الاحاديث ما تتمكن بهِ من صرف الوقت فأذنا لي ان اعرّف بعضكما ببعض . ثم التفت الى برَون وقال لهُ اعرّفك بالمستر جون بلفور والتفت الى بلفور وقال لهُ اعرّفك بالمستر توما برَون . فما اتمّ ادورد هذه الكلمات حتى وثب المستر برون من مكانه كمن مسهُ سلكٌ كهربآئي اما بلفور فحظت عيناهُ وتورّدت وجنتاهُ وصاح بصوت يخنقهُ الغيظ وقال ماذا اسمع .. اسم توما برون .. الحية الرقطآء اللص الخاطف النذل الجبان . نعم ان توما برون هو هو الرجل الذي احسنت اليه فسلبني مالي وجرّ عليّ الويل والخراب فلتلعنهُ السمآء ولتلعنهُ الارض ولتصمهُ دعواي المتصاعدة ليلاً ونهاراً الى عرش المنتقم الجبار . قال ذلك وهمّ بالخروج فوثب اليهِ برون وامسكهُ من ثيابهِ ثم جثا امامهُ فقبل قدميهِ وقال مهلاً يا مولاي بلفور اناشدك الله ان لا تزيد حياتي مرارةً وقلبي انكساراً فاسمح لي ان

اسرد لديك عذري واستغفرك عن ذنبي . ودخل ادورد بينهما وقد استغرب هذا الاتفاق العجيب فاجلس بلفور رغماً عنهُ واخذ برون يقص ما كان من حديثهِ فقال

أجل ايها السيد الكريم انك انت سبب نعمتي لانك اخذتني فقيرا وجعلتني قيماً على جميع اعمالك واموالك وقد دار في راسي الطمع او حب الغنى فزينت لي نفسي الخبيثة ان اساوي نفسي بك ثم لم اكتفِ بذلك حتى اقدمت على ما فعلتهُ فتركتك فقيراً وتملكت مقتناك وقد اشتغلت سنتين بجد ونشاط فضاعفت المال . ولكن بعد ذلك هب الشرف من رقادهِ واستيقظ ضميري بعد موته فندمتُ على ما فعلت ورأيت ان ادراك ما جرى بارجاع مالك مع فوائضه واخذ ما حصلتهُ انا بجدّي فبحثت عنك فلم اقف لك على اثر فاعلنت في الجرائد مدة ثلاث سنوات ولم اظفر بك ولم يطمئن ضميري قط فاعتزلت الاشغال وجئت هذه البلدة مع زوجتي وولدي فانقطعت عن العالم واخذت اكفّر عن ذنبي بالصلاة والتقشف والزهد مدة هذه السبعة عشر عاماً وقد ماتت في اثنآئها زوجتي فزادت احزاني وضاعفت مصائبي

ثم جعل الاثنان يتعاتبان ويستفسران وادورد يعجب مما جرى على غير انتظار حتى آذنت الساعة الحادية عشرة وجآءت أليس لتأخذ اباها حسب العادة فسمعت بعض الكلام فوقفت على الباب متأملةً واذا بوليم قادمٌ ايضاً فانهُ كان قد استبطأ والدهُ وجآء ليسأل عنهُ فوقف مع أليس واشتغلا بحديثٍ خاص

وحانت من ادورد التفاتة فرآهما فهبّ اليهما وادخلهما فاطلعهما على ما جرى وكان برَون لا يزال يستغفر بلفور ويلحّ عليهِ في قبول ارجاع امواله مع فوائضها وقد بلغت نصف مليون من الليرات . ولما طال الجدال وقف ادورد فقال لا اظنكم تحجمون عن اقامتي حكماً في الامر فان المستر بلفور لم يعد لهُ حاجةٌ بالمال لانهُ اصبح شيخاً لا يقدر على تعاطي الاشغال ولهُ هذا البيت الذي يكفيهِ لمعيشتهِ ولكن لما كانت هذه الاموال حقهُ فيجب ان تُسلَّم الى ابنتهِ أليس . واما المسيو برَون فجزآؤهُ على فعلتهِ هذه ان يؤخذ منهُ كل مالهِ ويعطى لابنهِ وليم وبما اني رأيت لا بل تحققت وجود الحب الصادق بين وليم وأليس فاقضي بان تكون خاتمة هذا الامر اقترانهما فيكون في ذلك تجديد صلة المودّة بين الطرفين وسعادة البيتين جميعاً

فتبسم بلفور وقد اعجبهُ هذا الحكم وانحدرت دمعتان من عيني برون علامة السرور وكان بعد ذلك ان اقترن وليم بأليس واقاما يتمتعان بتلك الثروة الواسعة وافرزا لوالديهما مكاناً يقضيان فيهِ بقية الحياة ويتحادثان ليلاً ونهاراً فيعوضان عن سكوتهما مدة تلك العشرين سنة

اما ادورد فكان الضيف الوحيد المعزَّز المكرَّم عند تلك الأُسرة لِما انهُ كان هو السبب في اجتماع شملهم وما صاروا اليهِ من الهنآء والرخآء فلبث معهم كانهُ واحدٌ منهم الى ان فرقت بينهم الاقدار